جامعة تكريت / كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم التاريخ / المرحلة :الثالثة

المادة :تاريخ اسيا الحديث والمعاصر

عنوان المحاضرة

التغلغل الغربي في قارة آسيا

أ. د.ابتسام حمود محمد

التغلغل الغربي في قارة آسيا

بعد أن خرجت أوربا من حالة التخلف المقيتة التي عاشتها خلال القرون الوسطى والتي كانت فيها متأخرة عن دول الشرق في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومنذ أواخر القرن الخامس عشر بدأ الاحتكاك الغربي بقارة آسيا إذ وصل البحار البرتغالي فاسكو دي كاما إلى سواحل الهند في عام 1498 والهند هي المحطة الأولى لمعظم الدول الأوربية التي وطأت إقدامها شرق آسيا وذلك لوقوعها على مقربة من مراكز التوابل الرئيسية الكائنة هناك ، وهي في الوقت نفسه كانت القاعدة التي انطلق منها النفوذ الغربي نحو الشرق الاقصى وجنوب شرق اسيا . فقد أقام البرتغاليون أول قاعدة لهم في الشاطئ الغربي للهند عام 1510 م.

ويمكن أن نعد بداية القرن السادس عشر هي بداية للتاريخ الحديث في كل من أوربا وجنوب شرق آسيا والشرق الأقصى وكذلك بداية التغلغل والاستعمار الأوربي في آسيا . وبدأ ذلك بالكشوفات الجغرافية للوصول إلى مصادر الثروة الأساسية للعرب والمسلمين ولاسيما احتكار التجارة وطرق التجارة بين الشرق الأقصى وأوربا التي كان العرب أسيادها في تلك المرحلة ، وكانت البندقية (حليفتهم في أوربا) هي سيدتها في إنحاء أوربا .

فاتجهت البرتغال واسبانيا لاكتشاف طريق جديد للوصول إلى شرق آسيا للحصول على مأربها ، واحتكار تجارة التوابل والحرير التي كانت تمر عبر أراضي الوطن العربي إلى الموانئ الأوربية وتحديداً البندقية وجنوة .

ويمكن أن نعزو ذلك التغلغل الأوربي في شرق آسيا إلى دافعين رئيسين هما :

الدافع الاقتصادي والطمع في الاستحواذ على تجارة التوابل والبضائع الأخرى التي كانت أوربا بأمس الحاجة لها . والدافع الديني الذي خلفته العصبية الدينية ولاسيما بعد ولادة الحركة اللوثرية وردة فعل المذهب الكاثوليكي. وهذين الدافعين الأساسيين هما اللذان دفعا البرتغاليين والأسبان في طريق الكشوف الجغرافية التي ولد على اثرها الاستعمار الحديث الذي جاء أيضاً على اثر نمو الروح القومية وقيام دول حديثة ذات سلطة مركزية في أوربا ، وتأسيسا على ذلك أصبح هناك دافع ثالث يضاف إلى ما سبقه من دوافع وهو الدافع السياسي . ويمكن توضيح تلك الدوافع باختصار :

1- الدافع الاقتصادي:

لم تتوقف الصلات التجارية بين أوربا وآسيا على مدى التاريخ ، وان كان الركود قد اصابها في القرون الوسطى إلا أنها عادت وازدادت في أواخر تلك القرون ، فاندفع الأوربيون إلى طلب السلع الآسيوية

التي كانت تحتكرها الموانئ الايطالية (البندقية وجنوة اللتان تعدان مفتاح الطرق بين الشرق والغرب) في أوربا

وهما حليفتان للعرب والمسلمين المسيطرين على تجارة البضائع الآسيوية ولاسيما التوابل والحرير والعاج وجوزة الطيب ، ومما دفع البرتغاليين والأسبان ، الذين أحسوا بوطأة الاحتكار العربي- البندقي لتلك التجارة ، إلى البحث عن طريق جديد يوصل أوربا بشرق آسيا من دون المرور بالأرض العربية ، العراق ومن ثم بلاد الشام التي كانت تسيطر عليها دولة المماليك المسلمة ، والاستغناء عن أي وسيط عربيا كان أم أوربياً كان البرتغاليون هم السباقون في ذلك ، ففي بداية القرن السادس عشر الميلادي سيطر البرتغاليون على طريق التجارة بين الهند والصين وأسسوا أول مركز تجاري لهم في الصين قرب ميناء كانتون في عام 1515 ، كما أسسوا مراكز تجارية أخرى في الهند وجزر الهند الشرقية بعد أن أخضعوها لسيطرتهم ولاسيما جزيرتي ملقا في عام 1511 ويعد مضيقها من أهم المضايق في الشرق، وجزيرة الملوك (وهي أهم الجزر الاندونيسية التي تشتهر بزراعة التوابل الممتازة) ، وكان ذلك من اجل السيطرة على تجارة التوابل والسلع الآسيوية الأخرى والعمل على خفض أسعارها بالنسبة للمستهلك الأوربي ونقل الثقل الاقتصادي من موانئ البحر المتوسط إلى موانئ المحيط الأطلسي الشرقية.

أثار النشاط البرتغالي في آسيا اهتمام الدول الأوربية الأخرى التي أخذت تغزو المنطقة كهولنداوبريطانيا وفرنسا ..... الخ ، كما ساعد على اهتمام دول أوربا بالتجارة مع شرق آسيا التحولات الاقتصادية الكبيرة المتمثلة بالثورة الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وازدهارها في القرن التاسع عشر ، مما حدا بالأوربيين أن يتوجهون إلى الخارج بحثاً عن مصادر المواد الخام وأسواق لتصريف الفائض من منتجاتها الصناعية ، فضلاً عن استثمار رؤوس الأموال وجلب الأيدي العاملة الرخيصة .

وعموم القول : أن وصول الأوربيون ونشاطهم في الشرق الأقصى أو شرق آسيا كان يتركز بالدرجة الأولى على التجارة ، إما الأمور الدينية والسياسية فتأتي لخدمة الغرض الاقتصادي نفسه .

2-الدافع الديني:

سعى الأوربيون ولاسيما البرتغاليون والإسبان إلى إقصاء الاحتكار العربي والإسلامي على تجارة شرق آسيا ، ورفعوا شعار القضاء على المسلمين بتجريدهم من املاكهم في شمال إفريقيا وغربها وانتزاعها تجارة الشرق من أيديهم وبذلك اصطبغ الصراع بين الطرفين بصبغة دينية ، وهكذا رافقة النشاط التجاري نشاط ديني من خلال البعثات التبشيرية التي نفذت إلى داخل دول شرق آسيا .

وبعد أن خرج المسلمون من أخر حصن لهم (غرناطة) في شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والبرتغال) في عام 1492 ، رفعتا هاتين الدولتين شعارا هو قتل العرب المسلمين في أي مكان من إرجاء الأرض ،

فتحول ذلك الصراع إلى صراع تجاري وديني انتقل إلى جنوب شرق آسيا حيث يسيطر المسلمون على تجارتها وعلى طرق التجارة المؤدية إلى مصادر تلك التجارة .

ومن الدلائل الواضحة على النشاط التبشيري في جنوب شرق آسيا ما يأتي:

كان الأمير هنري الملاح (1460-1394) الذي بدأ بالاستكشافات منطلقاً من شبه الجزيرة الايبيرية يأمل أن يؤدي وصوله بمحاذاة الساحل الغربي لإفريقيا إلى هدفين هما : الوصول إلى أسواق الشرق ومنابع التوابل في جزر الهند الشرقية من جانب ، والوصول إلى مملكة القديس يوحنا في شرق أفريقيا على أمل أن يؤدي ذلك الاتصال بها إلى الانقضاض على الدول الإسلامية التي تحتكر التجارة الشرقية وتسيطر على طرق مواصلاتها .

كما ان البرتغالي فاسكو دي كاما (الذي اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح) وعندما وصل الى سواحل الهند في عام 1498 وسأله حاكم قاليقوط احد حكام امارات شرق آسيا عن سبب مجيئه الى هذه الديار النائية عن بلاده ، اجابه بشكل صريح : المسيحية والتوابل . هذا فضلاً عن ما قاله الفونسودا البركيرك في خطاب القاه على جنده في ملقا في عام 1511 : ان ابعاد العرب المسلمين عن تجارة التوابل هو الوسيلة التي نرجو بها اضعاف قوة الأسلام .

إما موقف البابوية في روما ولاسيما البابا اسكندر السابع فقد كان يشجع الارساليات التنصيرية، وباركت عمليات الاستكشافات والتغلغل الى جنوب شرق آسيا ودعمت ذلك من خلال تدخلها في فض النزاع الذي دب بين كل من البرتغال واسبانيا على المناطق المكتشفة ، وكذلك استطاعت البابوية ان تخلق شعوراً عاماً بين الاوساط الأوربية امتزجت فيه الروح الصليبية العدائية مع العاطفة الوطنية لمحاربة المسلمين مما ادى الى ان كثير من الاوربيين تركوا اوطانهم وذهبوا الى مناطق الصراع خدمة لعقيدتهم ومصالحهم .

وبذلك نفذ نشاط البعثات التنصيريةالى داخل بلدان جنوب شرق اسيا والصين والهند ، وقاموا بتأسيس ارساليات تضم قساوسة لنشر عقيدتهم الدينية التي كانت هي مقدمة للتغلغل السياسي ومن ثم العسكري

وعلى الرغم من ان كل الممارسات الاستعمارية في شرق آسيا كانت مركزة حول النشاطات التجارية إذ أن المسائل التجارية كانت فوق كل اعتبار عقائدي الا ان الواقع الديني ادى دوراً مهماً في حركة الاستعمار والتغلغل في شرق آسيا . وما يبرز ذلك هو أن بعض المدن الايطالية ولاسيما البندقية وجنوة التي كانتا تسيطران على تجارة التوابل الآسيوية في البحر المتوسط كانتا مسيحية الديانة ، ولكنها اتحدت مع القوى

الاسلامية لمقاومة المحاولات البرتغالية التي تتعرض للتجارة الشرقية فضلاً عن ما شهدته آسيا من صراع بين القوى المسيحية بعضها مع البعض الذي كان راجعاً الى التنافس حول مناطق النفوذ في آسيا وكان انعكاساً للصراع في أوربا (حرب الوراثة النمساوية 1740-1748 والصراع الفرنسي – البريطاني وحرب السنوات السبع 1756-1763) والذي دفع الدول المتصارعة الى الاعتداء على ممتلكات غريمتها في شرق آسيا .لم تكن الدعوة الى نشر المسيحية سوى حملة البرتغاليين وغيرهم لتحقيق اهدافهم الاقتصادية الكبرى وباتت الاهداف الاقتصادية هي محور السياسة الاستعمارية في شرق آسيا .

3-الدافع السياسي:

كان للأوضاع السياسية الداخلية في بعض الدول الاوربية اثراً واضحاً في دفعها الى فتح مجالات خارجية استعمارية في شرق آسيا تكون لها دور في تحويل نظر شعوب تلك الدول عن المشكلات والاهتمامات الداخلية ، فضلاً عن الصراع المستمر بين انجلترا وفرنسا في اواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر مما دفع الدولتين الى حركة استعمار خارج أوربا ولاسيما شرق اسيا . وهناك اسباب عديدة ساعدت على التغلغل السياسي الاوربي في شرق آسيا منها:

1- النجاح الذي حققه الاوربيون في الاتصال بمصادر التجارة الشرقية مباشرة والاستغناء عن أي وسيط كان عربيا أو أوربياً ، وتمكنت من كسر احتكار التوابل والسلع الآسيوية الاخرى التي سيطر عليها العرب والمسلمين ، والبنادقة ردحاً طويلاً من الزمن وبناء مراكز تجارية عديدة في الهند وجزر الهند الشرقية والصين وكانت نواة لبناء مناطق للنفوذ وقواعد عسكرية ومؤسسات لها هناك .
2- كانت البعثات التنصيرية المتعددة دوراً مهماً وكبيراً في بناء ارساليات ودور للعبادة في كل مكان زاره في شرق آسيا ، وما تلك الارساليات الا مقدمة للتغلغل السياسي والعسكري للاستعمار الاوربي الذي مهد لاقامة امبراطوريات هناك .
3- ادى نمو الروح القومية في اوربا وقيام دول حديثة ذات سلطة مركزية تختلف الى حد كبير عن ملكيات اوربا في القرون الوسطى فسعت الى توسيع املاكها داخل اوربا وخارجها ، وبناء مستعمرات فيما وراء البحار .